مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد12/ العـدد: 03 (2024)، ص: 457-441

البيئات المساهمة في البحث البلاغي

Environments contributing to rhetorical research

هاجر بلخيري [1]، أ/د حواس بري [2]

[1] جامعة الجزائر2 (الجزائر)، belkhiri.hadjer@univ-alger2.dz

ibnberri@yahoo.fr [2]

مخبر الخطاب الصّوفي في اللّغة والأدب

تاريخ الاستلام: 2024/07/05 تاريخ القبول: 2024/09/08 تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

إنّ البلاغة العربيّة لا تخرج في اهتماماتها عن حدود اللّغة، باعتبار اللّغة مصدرا أساسيا لتحقيق التّواصل، لهذا اهتم بها علماؤنا القدامى في مختلف العلوم، فكانت الدّراسة منذ البداية موجهة صوب البلاغة العربيّة، ، فحظيت البلاغة العربيّة القديمة باهتمام كبير لدى الكثير من العلماء في مختلف المجالات، فلم تكن خاصة بالبلاغيين، وإنّما نجدها تصول وتجول في عدّة حقول ومعارف، بدءا بالنّقد في العصر الجاهلي وختاما بالدّراسات القرآنية وذلك قصد البحث عن أوجه الإعجاز ابتداء من القرن الثّالث، إضافة إلى ذلك ما نجده من علوم أخرى بين العلمين، فعالج اللّغويون والأدباء والمتكلمون قضايا البلاغة العربيّة في كتبهم وكلّ حسب انتمائه، ولا يزال هذا التّداخل واقع بين العلوم في عصرنا الحالي.

كلمات مفتاحية: البلاغة العربيّة، النّقاد، الأدباء، النّحاة واللّغويون، المتكلمين، الفلاسفة والمناطقة.

Abstract

The rhetoric Arabic does not depart in its interests from the limits of language, as language is an essential source for achieving communication, so our ancient scientists in various sciences were interested in it, so the study from the beginning was directed towards rhetoric Arabic, so the rhetoric of the ancient Arabic received great attention among many scientists in various fields, it was not specific to rhetoricians, but we find it arriving and wandering in several fields and knowledge, starting with criticism in the pre-Islamic era and finally with Quranic studies in order to search for miracles starting from the third century, In addition to what we find from other sciences between the two sciences, linguists, writers and speakers dealt with the issues of rhetoric Arabic in their books, each according to his affiliation, and this overlap is still a reality between the sciences in our time.

What is the place of rhetorical studies in the Arab heritage?

Keywords: Arabic rhetoric, critics, writers, grammarians and linguists, theologians, philosophers and regionalists.

***المؤلف المرسل:** هاجر بلخيري

1. مقدمة

إنّ البداية الأولى للبلاغة العربيّة كانت على شكل ملاحظات مبثوثة في كتب أقل ما توصف به أنّها كتب جامعة لشتى العلوم، إذْ نجدها في الكتب اللّغوية والأدبية والنّقدية والدّراسات القرآنية، فهي لم تتضح بعد كغيرها من العلوم الأخرى، وما يجمع اهتمام هؤلاء الكتاب بعلم البلاغة كونها تبحث في جمالية النّص الأدبي، إضافة إلى ذلك أنّها تهتم ببنية اللّغة، وهي عنصر مهمٌ في النّقد، وأهم ذلك تعتبر وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

فلم تكتف البلاغة العربيّة بالعناية بدستور العرب وخطبهم فحسب، بل امتد اهتمامها إلى القرآن الكريم الّذي وجدته مصدرا مشعا غنيا بفنونها المتنوعة، فارتمت في أحضانه باحثة عن تميّزه عن كلام العرب، والأساليب الّتي انضوت فيه، لتصل بعدها إلى قضية الإعجاز الّتي من خلالها وقف الباحثون على أوجه إعجاز القرآن الكريم الّذي كانت البلاغة وجها من وجوهه، ومعرفة نظمه العجيب.

على هذا الأساس يمكننا طرح الإشكالية التّالية:

فيما تمثلت البيئات المساهمة في الدّرس البلاغي القديم؟

من هذه الإشكالية نخرج إلى أسئلة فرعية متمثلة في:

_ من أي ناحية انطلق القدامى في دراستهم للبلاغية العربيّة؟

_ كيف أسهمت هذه البيئات في تطوير البحث البلاغي؟

واعتمدنا في دراستنا على المنهج التّاريخي، وذلك قصد تتبع البيئات الّتي أسهمت في البحث البلاغي، ووظفنا بعض الآليات كالتّحليل والنّقد.

1.النّقاد:

تشكل البلاغة جزءا مهما من النّقد، وهو عنصر لا يتجزأ منه، فبداية البلاغة كانت انطلاقا من الملاحظات النّقدية الّتي كان يُبديها النّقاد حول النّتاج الأدبي المعروض عليهم، إذْ كانت نشأته الأولى ناتجة من النّقد الّذي كان يصدره النّقاد اتجاه الإنتاج الأدبي، خاصة أنّ الأدب الجاهلي كان على درجة عالية من البلاغة والفصاحة، لا تعتريه صنعة ولا تكلف إلّا ما كان عن غير قصد (يحيلنا هذا الكلام إلى شعر **زهير بن أبي سلمى** المعروف بمذهبه في الشّعر بتنقيحه وتهذيبه حتّى أصبح يعرف شعره بالحوليات والمذهبات، وذلك نظرا لكثرة التّمعن فيه، وإعادة تنقيحه حتّى يخرج بشعره إلى الكمال الفني، ويبلغ أسمى التّعابير الفصيحة والبليغة)، إذْ من خلال الآراء الّتي كان يُبديها النّقاد نلمس حضور البلاغة العربيّة في الأحكام الّتي يصدرها النّقاد حول الشّعر، والأمر نفسه في النّثر تنبه النّقاد إلى عيوب الفصاحة والبلاغة في الخطابة وكلّ ذلك من خلال الذّوق.

وبقيت البلاغة ترافق النّقد في مراحل متقدمة، إذْ نجد معظم النّقاد يستعينون بالبلاغة العربيّة في تحليلاتهم للنّصوص الأدبية، فكانت المقاييس البلاغية هي الّتي تحدّد محاسن الشّعر ومساوئه، وهي الّتي تفصل بين الشّعراء، فإذا ما ذهبنا إلى **ابن سلام** نجده في كتابه "طبقات فحول الشّعراء" يعتمد على بعض المقاييس البلاغية في اختياره لفحول الشّعراء، فنجده يسبق **امرئ القيس** ويضعه على رأس الطّبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية لأنّه « سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشّعراء، استيقاف صحبه، والتّبكاء في الدّيار، ورقة النّسيب، وقرب المأخذ، وشبه النّساء بالظّباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد. وأجاد في التّشبيه. وفصل بين النّسيب وبين المعنى » (الجمحي، دت، 55/1)، والشّاهد في قوله هذا ابتداعه لتشبيهات لم يسبقه إليها أحد كتشبيه النّساء بالظّباء وغيرها، إضافة إلى ذلك أنّه ركز في دراسته على شعراء العصر الجاهلي والإسلامي والأموي دون العصر العباسي لأنّ هؤلاء خرجوا عن عمود الشّعر، وأصبح اهتمامهم منحصرا بالصّنعة اللّفظية وكثرة البديع، وهذا سبب يعود إلى البلاغة العربيّة، فبعض شروط عمود الشّعر هي أسس في البلاغة العربيّة، كشرف المعنى وصحته، جزالة اللّفظ واستقامته، المقاربة في التّشبيه، مناسبة المستعار منه للمستعار له، مشاكلة اللّفظ للمعنى، فهذه الشّروط هي من صميم البلاغة العربيّة وعلى أساسها بنى العديد من النّقاد دراستهم النّقدية، ونذكر على سبيل المثال: **ابن سلام** في كتابه "طبقات فحول الشّعراء"، **قدامة بن جعفر** في كتابيه "نقد الشّعر" و"نقد النّثر" المنسوب إليه، **ابن طباطبا العلوي** في كتابه "عيار الشّعر"، **الآمدي** في كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، **والقاضي الجرجاني** في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، **وأبو الحسن المرزوقي** في مقدمة كتابه "شرح الحماسة" الّذي وضع أسس عمود الشّعر.

فابن سلام _ كما سبق وذكرنا _ قدم امرئ القيس لاختراعه للتّشبيهات الّتي وصف بها المرأة وغيرها، وإنْ كان أخذ تلك الحجج عن اللّغويين والنّحاة يستند إلى مبحث أساسي في البلاغة العربيّة القديمة ألا وهو التّشبيه.

ننتقل بعدها إلى القرن الرّابع مع **ابن طباطبا العلوي** صاحب كتاب" عيار الشّعر"، الّذي تعرض فيه إلى الحديث عن فنون التّعبير عند العرب القدامى مبتدئا كلامه بالتّشبيه قائلا: « واعلم أنّ العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتّشبيهات والحكم (...) فتضمّنت أشعارها من التّشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها، إلى ما في طبائعها وأنفسها (...) فشبهت الشّيء بمثله تشبيها صادقا على ما ذهبت إليه في معانيها الّتي أرادتها » (العلوي، 2005،ص16_17)، وذهب إلى أبعد من ذلك حينما وضع تقسيمات للتّشبيه إذْ ذكر أنّ التّشبيهات « على ضروب مختلفة. منها: تشبيه الشّيء بالشّيء صورة وهيئة، ومنها تشبيهه به معنى، ومنها تشبيه به حركة، وبطئا وسرعة، ومنها تشبيهه به لونا، ومنها تشبيهه به صوتا. وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض » (العلوي، 2005،ص23)، وهذه التّشبيهات بعضها يعود إلى الجانب الحسي، كالنّظر والسّمع والحركة، وبعضها يعود للجانب المعنوي.

ولم يغفل **ابن طباطبا** القضايا النّقدية فتحدث عن قضية اللّفظ والمعنى وبعد عناصر البديع.

وبمجيء النّاقد الفذ **الآمدي** نجد النّقد مرتبطا بالبلاغة ارتباطا وطيدا، وهذا من خلال كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، حيث وازن النّاقد بين الشّاعرين من النّاحية الفنية قائلا: « ومن فضل **البحتري**، ونسبه إلى حلاوة النّفس، وحسن التّخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتى، وانكشاف المعاني. وهم الكتاب، والأعراب والشّعراء المطبوعون وأهل البلاغة » (الآمدي، دت، 04/1)، ويقول: « **البحتري** أعرابي الشّعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشّعر المعروف، وكان يتجنب التّعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام » (الآمدي، دت، 04/1_05)، ويقول: « فإنْ كنت (...) ممّن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السّبك، وحسن العبارة، وحلو اللّفظ، وكثرة الماء والرّونق؛ **فالبحتري** أشعر عندك ضرورة » (الآمدي، دت، 05/1)، هذا من ناحية الخصائص الفنية عند **البحتري**، أمّا **أبو تمام** فيرى أنّ شعره يميل إلى « غموض المعاني ودقتها (...) ممّا يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج. وهؤلاء أهل المعاني والشّعراء أصحاب الصّنعة ومن يميل إلى التّدقيق وفلسفي الكلام (...) لأنّ **أبا تمام** شديد التّكلف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة » (الآمدي، دت، 04/1_05)، ويقول أيضا: « وإنْ كنت تميل إلى الصّنعة، والمعاني الغامضة الّتي تستخرج بالغوص والفكرة، ولا تلوى على ما سوى ذلك، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة » (الآمدي، دت، 05/1)، من خلال الخصائص الفنية الّتي ذكرها **الآمدي** لكلّ شاعر تتضح أهمية البلاغة عند أصحاب كلّ فريق، وإنْ كانت مختلفة كلّ الاختلاف، فجانب يفضل المعنى القريب، البعيد عن التّكلف، والألفاظ الواضحة، والاستعارات القريبة، في حين يفضل الفريق الثّاني المعنى الغامض، واللّفظ المستهجن، والتّكلف والاستعارات البعيدة، وكلّ ذلك له علاقة بالبلاغة، فالجانب الأوّل يمثل العناصر الفاعلة في البلاغة والفصاحة، والجانب الثّاني يعدّ من عيوب الفصاحة من التّعقيد المعنوي، وحوشي الكلام، وغيرها من العيوب الّتي تبعد الشّعر عن أصله، أو ما يعرف الخروج عن عمود الشّعر.

ومن الأمثلة الّتي قدمها ممّا عيب على **أبي تمام** من الاستعارات، وليس بعيب حسبه قوله (تمام، دت، 22/1): [الكامل]

لا تسقني ماء الملام فإنّني صب قد استعذبت ماء بكائي

معلقا عليه بأنّ ليس للملام ماء، لكنّه جعل للملام ماء يقابل بينه وبين ماء البكاء، وهو أمر مسموح به، مقارنا ذلك بما نزل في الذّكر الحكيم قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ** ﴾[الشّورى: آ40]، فاللّفظة الثّانية سيئة تعني الجزاء وليس سيئة، **فالآمدي** اعتمد هنا على القياس أو المقارنة (الآمدي، دت، 1/ 277_278).

هذا فيما يخصّ شعر **أبي تمام والبحتري**، وإذا ما ذهبنا إلى الدّراسات الّتي وضعت حول شعر **المتنبي** نجدها لا تختلف عن سابقاتها الّتي وضعت حول **أبي تمام والبحتري**، فها هو **الحاتمي** يضع رسالتين، يتعرض في الأولى إلى المآخذ السّلبية في شعر **المتنبي**، وخصّص الأخرى بالمآخذ الإيجابية.

يرى **الحاتمي** أنّ **المتنبي** لم يراع مقام الممدوح في بعض أشعاره، ومن الأمثلة الّتي ذكرها قوله (المتنبي، 1983، ص359): [الطّويل]

إذا كان بعض النّاس سيف لدولة ففي النّاس بوقات لها وطبول

يعلق **الحاتمي** على هذا القول بقوله: « أ هكذا تمدح الملوك؟ » (الكاتب، 1965، ص19).

وقوله (المتنبي، 1983، ص32): [الطّويل]

أليس عجيبا أنّ وصفك معجز وأنّ ظنوني في معاليك تظلع

يعلق الحاتمي على هذا البيت بقوله: « فاستعرت الظّلع لظنونك، وهي استعارة قبيحة، وتعجبت من غير متعجب لأنّ من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظّنون وتحيرها في معاليه، وإنّما نقلته وأنشدته من قول **أبي تمام**:

ترقت مناه طود عز لو ارتقت به الرّيح فترا لا نثنت وهي ظالع » (سلام زغلول، دت، ص274).

ومن أشهر الدّراسات حول شعر **المتنبي** كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" **للقاضي الجرجاني**، الّذي تناول طريقة العرب القدامى في نظم الشّعر وطريقة المحدثين، (القاضي الجرجاني، 1966، ص ص33_34)، وأشار لفنون البديع وهي حسبه « الاستعارة، والتّشبيه، والتّجنيس (...) والمطابقة والتّصحيف والتّقسيم (...) والاستهلال والتّخلص » (سلام زغلول، دت، ص287).

هذا فيما يخصّ بيئة النّقاد الّتي رافقت البلاغة العربيّة القديمة منذ نشأتها إلى غاية ازدهارها، ولا تزال البلاغة جزءا لا يتجزأ من النّقد الأدبي فهو عنصر مهم فيها (ذكرنا في بيئة النّقاد ما تعرض إليه النّقاد في كتبهم عن علاقة البلاغة بالنّقد، ونشير إلى دراسات أخرى تعرضت لمباحث بلاغية كشروح الشّعر: "شرح النّقائض"، "شرح ديوان الحماسة"، وشرح **ابن الأنباري** "للمفضليات"، ومختارات من فنون الشّعر، منها: "التّشبيهات" **لابن أبي عون الكاتب**، "ديوان المعاني" **لأبي هلال العسكري**، "الموشح" **للمرزباني**).

2. بيئة اللّغويين:

اهتم اللّغويون منذ الدّراسات الأولى بالبحث البلاغي، فتطرّقوا إلى المباحث البلاغية وجعلوها من صميم بحثهم، إلى أنّها ألحقت فيما بعد بعلم البلاغة، ولعلّ مصطلح الفصاحة أوّل مصطلح انتشر في الدّراسات اللّغوية، وارتبط هذا المصطلح بظاهرة اللّحن، وهذا عندما جمع الرّواة الشّعر، ونقلوا اللّغة عن الأعراب، شاع اللّحن الّذي أدى إلى فساد الكلام، فتنبه اللّغويون إلى فصاحة الكلام الّتي تؤدي إلى سلامة اللّغة، وفي هذا يقول **سيبويه**: « سمعنا العرب الفصحاء يقولون » (سيبويه، 1982، 285/3)، وقوله: « سمعنا ذلك من فصحاء العرب » (سيبويه، 1982، 238/3)، يتضح من هذه الأقوال أنّ الفصاحة شرط أساسي لسلامة اللّغة.

أثبتت الكتب القديمة آراء **الخليل بن أحمد الفراهيدي** في البلاغة العربيّة، وعرف **الخليل** البلاغة عدّة تعريفات نذكر منها قوله: « كلّ ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإنْ استطعت أنْ يكون لفظك لمعناك طبقا، ولتلك الحال وفقا، وآخر كلامك لأوّله مشابها، وموارده لمصادره موازنا، فافعل » (المدبر، 2002، ص48)، ومن هذا التّعريف نستنتج

أنّ **الخليل** يقصد أنّ الفهم والإفهام هي البلاغة، وأنّ اللّفظ يطابق المعنى؛ أي مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وقوله: "مشابهة آخر كلام لأوّله" لعلّه يشير إلى ما استقر عند البلاغيين بمعنى "التّصدير" في علم البديع، فالمفهوم الّذي قدمه يشير إلى قضايا متنوعة أصبحت من صميم البحث البلاغي.

وفي تعريف آخر ذكره **ابن رشيق** يقول **الخليل**: البلاغة « ما قرب طرفاه، وبعد منتهاه » (القيرواني، 1981، 245/1)، وهنا يقصد الإيجاز وهو ما قلّت ألفاظه وكثرت معانيه.

ويتعرض **الخليل** إلى تلاؤم الألفاظ وتنافرها، الّذي نقله عنه **الرّماني** في رسالته "النّكت في إعجاز القرآن"، فيقول هذا الأخير: « وأمّا التّنافر فالسّبب فيه ما ذكره **الخليل** من البعد الشّديد أو القرب الشّديد وذلك أنّه إذا بعد البعد الشّديد كان بمنزله الطّفر، وإذا قرب القرب الشّديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنّه بمنزلة رفع اللّسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللّسان، والسّهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال » (الرّماني وآخرون، دت، ص96)، وهذا الرّأي لم يعتمد عليه كلّ العلماء، فهناك من وافق **الخليل** في كلامه عن تنافر الحروف بسبب القرب والبعد، وهناك من خالفه **كابن سنان الخفاجي** الّذي يرى أنّ التّنافر يكون في القرب فقط.

وممّا تطرق إليه **الخليل** وهو يعود إلى البحث البلاغي "الإيجاز والحذف"، أو بمعنى الدّقيق الإيجاز النّاتج عن الحذف، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ** ﴾ [النّساء: آ171]، فـ « قال **الخليل**: (...) كأنّك قلت: انته وأدخل فيما هو خيرا لك، فنصبته لأنّك قد عرفت أنّك إذا قلت له: انته، أنّك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام، ولعلم المخاطب أنّه محمول على أمر حين قال له: انته، فصار بديلا عن قوله: أئت خير لك، وأدخل فيما هو خيرا لك » (سيبويه، 1982، 283/1_284)، ولا يكون الحذف جائزا إلّا في حالة علم المخاطب بالكلام المحذوف؛ أي وجود قرينة دالة على الكلام المحذوف.

وإذا ما تتبعنا مسار كتاب **سيبويه** نجده يتعرض إلى مباحث أدرجت فيما بعد في الدّرس البلاغي، فتناول اللّفظة والمعنى، فيقول: « هذا باب استعمال الفعل في اللّفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار » (سيبويه، 1982، 211/1)، ويحيلنا ذلك إلى أسلوب الإيجاز الّذي استقر كمبحث في علم المعاني التّابع للبلاغة العربيّة، ومن أغراضه الاختصار، ومثله لذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾ [يوسف: آ82]، أصلها "وأسأل أهل القرية" (سيبويه، 1982، 212/1).

وتعرض أيضا إلى أحوال المسند والمسند إليه، وما يعتريهما من ظواهر، كالتّقديم والتّأخير، الحذف والذّكر، والتّعريف والتّنكير... إلخ، ونتيجة لذلك وضع بابا سماه" باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، وهذا ما نعني به النّظم الّذي استوى كالنّظرية قائمة بذاتها مع **عبد القاهر الجرجاني**، فذهب إلى الحديث عن جيّد الكلام ورديئه، وصدق الكلام وكذبه، يقول: « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب » (سيبويه، 1982، 25/1)، وقدم أمثلة توضح كلامه.

وإذا عرضنا على القرن الثّالث نجد عالما نحويا آخر تعرض إلى القضايا البلاغية، وهو **أبو العباس المبرد**، الّذي عرف البلاغة بقوله: « حقّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النّظم؛ حتّى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأنْ يقرّب بها البعيد، ويحذف منها الفضول » (المبرد، البلاغة، 1985، ص81)، **فالمبرد** من خلال هذا التّعريف يشير إلى النّظم، حيث يرى أنّ الكلمة يجب أنْ تلتئم مع أختها ليحدث تماسكا وانسجاما بينهما، وهذا يعني أنّ الكلمة وحدها لا تؤدي إلى معنى، إذْ يجب أنْ تضمّ الكلمات بعضها إلى بعض، وهذا ما ذهب إليه **عبد القاهر الجرجاني** هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتعرض إلى الفصاحة حين يتحدث عن حسن النّظم وتقارب الكلمات، وبذلك يعني يجب ألا تكون الكلمات متنافرة وبعيدة.

ويتناول **المبرد** ما اصطلح عليه البلاغيون بعده بـ "التّعقيد اللّفظي والمعنوي"، وهذا عندما تعرض لبيت **الفرزدق** (المبرد، الكامل، دت، 78/1)، فتنبه **المبرد** إلى التّعقيد الواقع في الأبيات الّذي أدى إلى فساد النّظم والمعنى واللّفظ.

ومن المباحث البلاغية الّتي تعرض لها **المبرد** "الالتفات"، الفصل والوصل، ويشير إلى مختلف أنواعه الّتي استقرت عند البلاغيين المتأخرين (كمال الاتصال، التّوسط، كمال الانقطاع)، وتحدث عن الحذف، والإيجاز، وخروج الاستفهام إلى أغراض أخرى، وأسلوب القصر، والتّقديم والتّأخير (حسين، 1998، ص201).

كما تنبه **المبرد** إلى أضرب الخبر، في حوار جرى بينه وبين **الكندي** الفيلسوف، (ع.الجرجاني ، 1992، ص315)، فأشار إلى الفرق بين الجمل وعلى أساس هذا الفرق وضع البلاغيون أضرب الخبر.

ولم يتطرّق المبرد إلى علم المعاني وحسب، بل نجده يهتم بعلم البيان، فتحدث عن "المجاز المرسل" لكن دون أنْ يسميه باسمه الاصطلاحي المتواضع عليه، والمجاز العقلي، والكناية الّتي بدت عنده في أحسن حال، حيث قسمها إلى ثلاثة أنواع: قسم خاص بالكناية النّاتجة عن التّعمية والتّغطية، وقسم خاص بالكناية النّاتجة عن الرّغبة عن اللّفظ الخسيس المفحش إلى ما يدلّ على معناه، وقسم ثالث خاص بالكناية النّاتجة عن التّفخيم والتّعظيم (المبرد، الكامل، دت، 297/2_298)، إضافة إلى وضعه بابا للتّشبيه (المبرد، الكامل، دت، 396/2)، وتناول عناصر من البديع كالتّجريد واللّف والنّشر.

3. بيئة الأدباء:

هذه البيئة مقارنة بالبيئة السّابقة نجد البحث البلاغي فيها ضئيلا، والأدباء الّذين تعرضوا للدّرس البلاغي يعدون على الإصبع، ونستطيع أنْ نحصرهم في: **الجاحظ** في كتبه" البيان والتّبيين" و"الحيوان" و"البخلاء"، **و ابن قتيبة** في كتابه "أدب الكاتب".

نبدأ كلامنا حول هذه الفئة مع **الجاحظ**، الّذي تعرض إلى البلاغة في غير موضع من كتبه خاصة كتاب "البيان والتّبيين"، وسنتعرض لكلّ كتاب على حدا.

هاجر بلخيري

البيان والتّبيين:

يعدّ هذا الكتاب أهم كتاب تعرض فيه **الجاحظ** إلى المسائل البلاغية، ويضمّ أربعة أجزاء، عرض في الجزء الأوّل عيوب الكلام أو عيوب الفصاحة، مستشهدا بما روي عن **المعتزلي واصل بن عطاء** الّذي عُرف بتجنبه لحرف الرّاء في النّطق، كما نجده يستعرض الحروف الّتي تؤدي إلى اللّثغة، وعيوب النّطق، وهذا الكلام له علاقة بالفصاحة الّتي تعدّ جزءا من البلاغة.

يتناول بعد ذلك بابا في البيان يتصدره بقول لبعض الجهابذة في الألفاظ ونقاد المعاني (الجاحظ، 1998، 75/1)، وهذا القول المفعم بالمعاني والدّلالات يحيلنا في نهايته إلى إحالة البيان على الدّلالة البارزة على المعنى الخفي، فالبيان مرتبط بوضوح الدّلالة، ولا تتضح هذه الدّلالة إلّا إذا عبر صاحبها عمّا يجول في صدره، إذْ لا أحد يستطيع معرفة خبايا الإنسان إلّا من خلال محادثته ومحاورته لتقريب الفهم ونفض الغبار عن المفاهيم البعيدة الموحشة.

ليقدم لنا **الجاحظ** بعد ذلك مفهوم البيان، قوله: « البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضّمير، حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان ذلك الدّليل، لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي إليها يجري القائل والسّامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع » (الجاحظ، 1998، 75/1)، وقوله: "البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك القناع المعنى" هذا الكلام لعلّه يقصد به أنّ أي شيء يوضح المعنى هو بيان، وهنا قد يكون هذا الشّيء معبرا عنه بالكلام أو الإشارة أو الصّمت، لكن عندما نكمل القول إلى آخره يتضح معنى البيان والّذي هو في نظره يكون على مستوى الكلام لا الإشارة ولا الصّمت، لأنّه حدّد عناصر توفر البيان أنْ يكون بوجود المتكلم (القائل) والمتلقي (السّامع) بحيث يكتسب الأوّل عنصر الفهم ليؤدي الدّور الثّاني عنصر الإفهام باتجاه السّامع، فيتوفر عنصري الفهم والإفهام حتّى يصل السّامع إلى البيان، فالبيان يكون على مستوى القارئ إلى المتكلم، لأنّ الإفهام يكون موجها إلى القارئ، وهنا يتضح أنّ البيان يستوجب توفر عناصر: المتكلم، الفهم، الإفهام، القارئ، لتحقيقه وهو المعنى اللّغوي لكلمة بيان.

وحصر **الجاحظ** أصناف الدّلالة في خمسة أنواع لفظية وغير لفظيه (الجاحظ، 1998، 76/1): اللّفظ، الإشارة، العقد، الخط، الحال أو النّصبة.

بعد حديثه المقتضب عن البيان الّذي سيعود للحديث عنه مرة أخرى في كتابه "الحيوان"، نجده يسرد مجموعة من التّعاريف للبلاغة عند العرب وغير العرب، فيبدأ بقول ينسبه لابن الزّبير ومحمد بن أبان يقول: « قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرّومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة » (الجاحظ، 1998، 88/1).

كل تعريف يعُطينا مباحث مهمة استقرت في علم البلاغة، فالفارسي يقصر البلاغة على الفصل والفصل، واليوناني جعلها مختصة بصحة التّقسيم (البديع)، واختيار الكلام (الألفاظ) الّتي تدخل في قضية اللّفظ والمعنى، أمّا الرّومي فجعل البلاغة مختصة بالإيجاز والإطناب، في حين اعتبر الهندي البلاغة هي البيان، لأنّ وضوح الدّلالة أهم عنصر لتحقيق البيان عند **الجاحظ**.

وإذا ذهبنا إلى التّعاريف الّتي أوردها عن العرب نجد مفهوم البلاغة عند **ابن المقفع**: يقول: « لم يفسر البلاغة تفسير **ابن المقفع** لها احد قط. سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون في ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة » (الجاحظ، 1998، 1/115_116)، هذا جزء من القول الّذي أورده **الجاحظ** لمفهوم البلاغة عند **ابن المقفع**، والملاحظ على هذا القول أنّ البلاغة عند **ابن المقفع** بلاغات متعدّدة أو تجري في عدّة وجوه، ويتضح ذلك حسب قوله: "منها ما يكون في السّكوت" يعني بلاغة الصّمت والّتي تكون عند البلاغيين أقوى وأبلغ من الكلام، ويكون ذلك في الحذف الّذي يخرج إلى عدّة أغراض بلاغية، كالاختصار والإيجاز، وقوله: "ومنها ما يكون في الاستماع" وهنا يربط **ابن المقفع** البلاغة بعملية التّواصل الّتي تحتاج إلى متكلم ومتلقي، **فابن المقفع** تنبه إلى أنّ البلاغة تؤدي وظيفة التّواصل أو التّبليغ من خلال هذا الكلام، أمّا قوله: "منها ما يكون في الإشارة" فيعني العلامة، والعلامة أو الإشارة هي الأخرى لها نفس أداء الصّمت، وتكون أهميتها أنّها تستعمل لاختصار الكلام وللإيجاز وتحديد الأشياء، وهي وسيلة ضرورية عند الأبكم، من خلالها يستطيع إيصال كلامه للغير، وقوله: "منها ما يكون في الاحتجاج" هنا يطرق **ابن المقفع** بابا آخر في البلاغة وهو الحجاج، الّذي أصبح _ في وقتنا الحالي _ نظرية قائمة بذاتها، والحجاج يكون بكثرة في المناظرات، كون كلّ فريق يحاول إثبات الحقّ لنفسه للتّأثير على الغير، وذلك باستعمال الحجج الّتي تعدّ البلاغة وسيلة من وسائلها بغرض الإقناع والتّأثير، وقوله: "ومنها ما يكون شعرا" أي نوع الأدب، وقوله: "ومنها ما يكون سجعا وخطبا" هنا يضع **ابن المقفع** البلاغة موازية للسّجع وهو عنصر مهم من عناصر البديع، ويكون في الخطب والمعروف عند العلماء المتأخرين أنّ السّجع يكون في النّثر، والخطب فن من فنون النّثر، **فابن المقفع** بتعريفه البلاغة بهذه الطّريقة كان على صواب، وقوله: "ومنها ما يكون في الرّسائل" وهنا يقصد الإيجاز، وقد عرف العرب على عهد **ابن مقفع** نوعا من الرّسائل الإيجاز في التّعبير والاختصار(الرّسائل المقصودة من هذا الكلام هي الرّسائل الإخوانية والدّيوانية).

بعد هذا القول يقول **ابن المقفع**: « فإنْ ملّ السّامع الإطالة الّتي ذكرت أنّها حقّ ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمت بالّذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنّه لا يرضيهما شيئا، وأمّا الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع النّاس شيئا لا تناله وقد كان يقال: رضا النّاس شيء لا ينال » (الجاحظ، 1998، 1/ 115_116)، هذا قول آخر يحيلنا إلى عناصر أخرى في البلاغة

العربيّة، ومنها ما يكون أكثر أهمية وقيمة في البلاغة العربيّة، فأوّل ما أشار إليه في قوله هذا "الإطناب" إذا كان في وقته المناسب؛ أي الإطناب المحمود الّذي يكون له هدف وغاية من خلاله، لينتقل بعد ذلك إلى أهم قضية بنيت عليها البلاغة، وهي ما يعرف عند البلاغيين "لكلّ مقام مقال"، هذه المسألة الّتي شغلت بال البلاغيين، ونعني بها أنْ يكون الكلام موجها بحسب ثقافة السّامع أو القارئ، **فابن المقفع** تنبه إلى وجود فوارق أو طبقات بين المستمعين، وسبب هذا التّفاوت يعود إلى ثقافة القارئ، لهذا يجب مخاطبة المثقف وفق ثقافته الّتي يتمتع بها، ومخاطبة الإنسان العادي وفق مستواه، وهذا ما ذكره **الجاحظ** أيضا عندما قسم الكلام إلى طبقات متلائمة مع طبقات النّاس (الجاحظ، 1998، 144/1).

ومن المباحث البلاغية الّتي تناولها **الجاحظ** في كتابه "البيان والتّبيين" البديع، والإيجاز والإطناب والازدواج والمجاز والتّشبيه والاستعارة والسّجع والاقتباس.

ولا ننسى حديثه عن قضية اللّفظ والمعنى، إذْ يرى أنّ أفضل الكلام ما جمع بين اللّفظ البليغ والمعنى الشّريف، يقول: « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه (...) فإذا كان المعنى شريفا واللّفظ بليغا وكان صحيح الطّبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التّكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التّربة الكريمة » (الجاحظ، 1998، 83/1)، وهذا بعد اعتباره اللّفظة أهم من المعنى؛ لأنّ المعنى _ في نظره _ متداول وفي مقدور الجميع، ولا يشترط المعنى الشّريف حتّى يتصف الكلام بالبلاغة (الجاحظ، الحيوان، 1965، 131/3).

كتاب الحيوان:

ألف **الجاحظ** كتاب "الحيوان" قبل كتاب "البيان والتّبيين"، وضمّنه بعض المباحث البلاغية الّتي أعاد الحديث عنها بالتّفصيل في كتابه "البيان والتّبيين"، وأوّل ما نتناوله قضية اللفظ والمعنى الّتي قدمها في هذا الكتاب بصورة وأعاد هيكلتها في كتابه الآخر بصورة أخرى، فهنا جعل المعاني ساقطة لا قيمة لها، وإنّما المزية _ في نظره _ تعود للّفظ، قوله: « والمعاني مطروحة في الطّريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. وإنّما إقامة الوزن، وتخير اللّفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفي صحة الطّبع وجودة السّبك » (الجاحظ، الحيوان، 1965، 131/3_132)، أمّا في كتابه الآخر جمع بين الاثنين (الجاحظ، 1998، 83/1)، فلا يكون اللّفظ بليغا إلّا إذا كان المعنى شريفا، وهنا دخل **الجاحظ** إلى ما يعرف بالمشاكلة.

يبدو أنّ **الجاحظ** في كتابه هذا لم يتعرض إلى المباحث البلاغية بالتّفصيل، وإنّما مجرد استشهادات، لكنّه أفرد بعد ذلك كتاب "البيان التّبيين" الّذي خصّصه للبيان والمباحث البلاغية.

عرض **ابن قتيبة** في كتابه "أدب الكاتب" إلى بعض المباحث البلاغية، لكنّها قليلة جدا بالنّظر إلى كتابه "تأويل مشكل القرآن"، استشهد بأمثلة في الاستعارة لكنّها عند المتأخرين عرفت باسم الكناية (ابن قتيبة، أدب الكاتب، 1988، ص46)، وفعل مع التّشبيه نفس الشّيء حينما جعله جزءا من الاستعارة (ابن قتيبة، أدب الكاتب، 1988، ص53)، وأشار إلى الإيجاز، لكنّه لم يحدّد له مصطلح خاص به (ابن قتيبة، أدب الكاتب، 1988، ص20).

ويتطرّق **ابن قتيبة** إلى قضية "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، وأنْ يكون الكلام موجها للمخاطب بحسب ثقافته ومستوياته، فيقول: « ويستحب له [أي الكاتب] أيضا أنْ ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأنْ لا يعطي خسيس النّاس رفيع الكلام، ولا رفيع النّاس وضيع الكلام » (ابن قتيبة، أدب الكاتب، 1988، ص ص19_20).

ويذهب إلى الإيجاز فيقول: « وهذا ليس بمحمود في كلّ موضع، ولا مختار في كلّ كتاب، بل لكلّ مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودا في كلّ الأحوال يجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنّه أطال تارة للتّوكيد، وحذف تارة للإيجاز وكرّر تارة للإفهام » (ابن قتيبة، أدب الكاتب، 1988، ص20)، في هذا القول يتعرض **ابن قتيبة** لمباحث البلاغة، الإيجاز والإطناب والحذف والتّكرار، ويرى أنّ هذه المواطن لا تكون دائما محمودة، وإنّما يجب مراعاتها بحسب مقتضى الحال؛ لأنّ البلاغة تكمن في "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، ولكلّ نوع أغراض بلاغية يهدف إليها المتكلم.

4. بيئة المتكلمين:

ظهرت هذه البيئة في العصر العباسي، وهي نوعان: المعتزلة: وينشطها: **الجاحظ والقاضي عبد الجبار والزّمخشري**، والأشاعرة: وينشطها: **الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وفخر الدّين الرّازي**.

المعتزلة:

كما سبق وذكر أننا سنتناول البحث البلاغي عند المعتزلة، وحصرنا بحثنا عند أربعة أعلام: **الجاحظ والقاضي عبد الجبار والزّمخشري**، وكلّ عالم عاش في فترة مختلفة عن الآخر، لكنّنا لن نتعرض **للجاحظ** لأنّنا سبق وتحدثنا عن جهوده في البحث البلاغي في بيئة الأدباء، لهذا سنتحدث عن جهود **الرّماني والقاضي عبد الجبار والزّمخشري**.

ومن أعلام المعتزلة الكبار نجد **القاضي عبد الجبار**، الّذي تناول البحث البلاغي في كتابه "المغنى في أبواب التّوحيد والعدل"، بالتّحديد في الجزء السّادس عشر، وحديثه عن البلاغة كان مقتضبا في نظر **شوقي ضيف** الّذي يقول: « يهمنا من حيث موضوع البلاغة الّذي نحن بصدّد تاريخه وتبيّن تطوّره فصلان قصيران في الكتاب، عرض **عبد الجبار** في أولهما رأي أستاذه **أبي هاشم الجبائي** في الفصاحة (...) أمّا ثانيهما فعرض فيه رأيه الخاص في الوجه الّذي له التّفاضل في فصاحة الكلام » (ضيف، 1983، ص115)، لكن هذا غير صحيح لأنّنا نجد حديث **القاضي** عن البلاغة واسعا جدا، فتناول الفصاحة بطريقة فريدة وجديدة من خلال تعقيبه على رأي أستاذه **أبي هاشم الجبائي**، فتعرض إلى النّظم بطريقة مميزة، جعلت مفهومه قريبا من مفهوم **الجرجاني**، بل لعلّ **الجرجاني** من خلال رأي **القاضي عبد الجبار** بنى نظريته في النّظم.

يري **القاضي عبد الجبار** أنّ الإعجاز لا يكون في الفصاحة الّتي تبناها أستاذه **الجبائي**، والّتي يقصد بها جزالة اللّفظ وحسن المعنى، وإنّما يكون الإعجاز في طريقة نظمه الفريدة بالتحام ألفاظه وضمّها بعضها مع بعض مع مراعاة تراكيب الكلام من إعراب وحركات، وهنا أدخل **القاضي عبد الجبار** النّحو كركن أساسي في النّظم (عبد الجبار، دت، 199/16).

هاجر بلخيري

تعرض **القاضي عبد الجبار** إلى العديد من المباحث البلاغية، سواء تعلق الأمر بعلم المعاني أو علم البيان أو علم البديع.

فمن مباحث علم المعاني تحدث عن الخبر وفائدته والأغراض البلاغية الّتي يخرج إليها ونفس الأمر مع الإنشاء وتعرض للتّقديم والتّأخير والقصر والإيجاز والفصل والوصل.

كما تناول مباحث علم البيان من التّشبيه واستعارة (عبد الجبار، المتشابه، ومجاز، وكناية، ومن البديع تناول المشاكلة، والتّورية، والمبالغة، والتّقسيم، واللّف والنّشر، ... الخ، فحديث القاضي عبد الجبار عن هذه المواضع كان في كتبه "المغني" و"تنزيه القرآن عن المطاعن" و"متشابه القرآن"، فخصّص حديثه عن الفصاحة في الكتاب الأوّل، أمّا الكتابان الآخران تطرّق فيهما إلى المباحث البلاغية، وهنا نجد الباحث **عبد الفتاح لاشين** أوضح جهود القاضي عبد الجبار في الدّرس من خلال كتابه "بلاغة القرآن في أثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدّراسات البلاغية".

وذهب **أبو القاسم الزّمخشري** في القرن السّادس من خلال كتابه "الكشاف" إلى تطبيق نظرية **الجرجاني** في البلاغة، فقام بتطبيق ما توصل إليه هذا الأخير في تفسيره "الكشاف" تطبيقا دقيقا.

تناول **الزّمخشري** قضية الإعجاز القرآني وذكر لها وجهين: النّظم والإخبار بالغيب (الزّمخشري، 1998، 188/3)، فيقول عن النّظم « هو أم إعجاز القرآن، والقانون الّذي وقع عليه التّحدي ومراعاته أهم ما يجب على المفسر » (الزّمخشري، 1998، 81/4)، فالنّظم هو أساس إعجاز القرآن عنده.

وقف **الزّمخشري** عند مباحث علمي المعاني والبيان وأولاهما عناية كبيرة مقارنة بالبديع الّذي جعله ذيلا لهما، فتحدث عن المجاز والاستعارة والتّمثيل والكناية هذا في البيان، أمّا المعاني تناول فيه الخبر والقصر والفصل والوصل والإنشاء والإيجاز والتّكرار، وفنون البديع تناول فيها الجناس والمشاكلة والتّقسيم ومراعاة النّظير واللّف والالتفات (ضيف، 1983، ص219)، كلّ هذه العناصر ذكرها **الزّمخشري** من خلال تفسيره لآيات الذّكر الحكيم، فهي لم تأت عناوين متسلسلة، وإنّما نجدها مبثوثة في تضاعيف الكتاب من خلال التّأويل والتّفسير البلاغي الّذي قدمه هذا الأخير في كتابه.

الأشاعرة:

سنقف في هذه النّقطة عند **عبد القاهر الجرجاني**، وسنرجئ الحديث عن **الفخر الرّازي** لاحقا في بيئة المناطقة والفلاسفة.

نصل إلى عصر ازدهار البلاغة العربيّة والّتي كانت مع **عبد القاهر الجرجاني** في القرن الخامس، من خلال نظريته المعروفة باسم "النّظم"، وذلك من خلال كتبه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" و"الرّسالة الشّافية".

عبد القاهر الجرجاني النّجم السّاطع في القرن الخامس الهجري، استطاع بفطنته وذكائه أنْ يُقوّم اللّغة العربيّة من خلال علم البلاغة وعلم النّحو، فتمكن من بلورة نظريته من علمين مختلفان لصياغة قانون واحد، وذلك بعد فكرة **القاضي عبد الجبار** في قضية النّظم، جاء **الجرجاني** لتوسيع تلك الفكرة وبناء نظرية متكاملة، خاصة بعلم المعاني

الّذي بنى عليه كتابه "دلائل الإعجاز"، ليبني كتابه الثّاني" أسرار البلاغة" على علم البيان، أمّا علم البديع فتعرض فيه لأنواع قليلة على سبيل الكلام، ولا نستطيع أنْ نتناول كلّ ما تعرض له **الجرجاني** بل سنشير إلى بعض العناصر.

حديثه عن النّظم يعني حديثه عن قضية اللّفظ والمعنى، إذْ يرى أنّه يجب أنْ تتآلف الألفاظ فيما بينها وتنتظم ليصح الكلام، فاللّفظة المفردة لا تؤدي أي وظيفة، ولكن نجده يُسبق المعنى عن اللّفظ بحكم نزعته الأشعرية، حيث يرى أنّ المعاني في الذّهن تسبق اللّفظة في النّطق، فـ « نظرية النّظم تعتمد على المبدأ الأشعري الّذي يفصل بين الدّلالة والمدلول، ويسلم بأسبقية المعاني القائمة في النّفس على الألفاظ الدّالة عليها في النّطق » (عصفور، 1992، ص317).

وهذه الألفاظ يجب أنْ تأخذ موقعها في الجملة، وهنا يحيلنا إلى النّحو، وحصر أركان النّظم في أربعة عناصر التّقديم والتّأخير، الحذف والذّكر، الفروق، الفصل والوصل، تلك الأركان تتمثل في مباحث علم المعاني، إضافة إلى مباحث أخرى.

أما مباحث علم البيان فنجده تعرض للمجاز بنوعيه العقلي واللّغوي بالتّحليل والتّفسير، وذكر التّشبيه والتّمثيل والاستعارة والكناية الّتي يعرفها بأنّها « أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه » (ع.الجرجاني ، 1992، ص66)، فتناول الكناية بأنواعها موضحا إيّاها بأمثلة متنوعة.

5. بيئة الفلاسفة والمناطقة:

كان من الممكن أنْ نستغني عن هذه البيئة، ونجعل أصحابها ضمن بيئات أخرى _ سابقة الذّكر _، إلّا أنّنا أصرينا على خوض غمار وضع بيئة خاصة بالفلسفة والمنطق لا من جانب أنّ أصحابها ينتمون إلى الفلاسفة، وإنّما من جانب أنّ أصحابها اعتمدوا على الفلسفة والمنطق في دراستهم، وكانت البلاغة جزءا مهما في مؤلفاتهم، وهم على سبيل الحصر: **قدامة بن جعفر** في كتابه "نقد الشّعر" و"نقد النّثر"، **ابن وهب الكاتب** في كتابه "البرهان في وجوه البيان"، **فخر الدّين الرّازي** في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز"، **والسّكاكي** في كتابه "مفتاح العلوم".

يتطرّق **قدامة بن جعفر** في كتابه" نقد الشّعر" إلى الكثير من المباحث البلاغية تحت غطاء النّقد، فغرضه في استعمال هذه المباحث غرض نقدي، لإظهار محاسن الشّعر ومساوئه، وأوّل ما نلاحظه اهتمامه بالحدود والتّقسيمات، فجعل كتابه مبنيا على ثلاثة فصول: فصل في حدّ الشّعر وعناصره، وفصل في محاسن الشّعر، وفصل في مساوئ الشّعر، وفي هذه الفصول نثر **قدامة** مباحث البلاغة الّتي سنقف عند بعضها.

يتحدث **قدامة** عن التّرصيع ويعدّه من نعوت الوزن (قدامة، دت، ص80)، ويتناول التّصريع (قدامة، دت، ص86)، ويجعله من نعوت القوافي، مع تقديم أمثلة على ذلك، ويذكر التّشبيه (قدامة، دت، ص124)، فيعرفه ويعطي شواهد عليه، وغيرها من المباحث البلاغية، كما أنّه يتعرض إلى الفصاحة من خلال حديثه عن عيوب اللّفظ (قدامة، دت، ص172)، والمعاظلة (قدامة، دت، ص174)، وفي كلّ هذا نجده يعتمد على البلاغة كآلية أو مقياس يُحدّد به جودة الشّعر ورداءته، فالبلاغة كانت عنصر يخدم النّقد في كتابه هذا.

وإذا ذهبنا إلى **ابن وهب الكاتب** نجده في كتابه "البرهان في وجوه البيان" الّذي يعدّ كتاب "نقد النّثر" المنسوب لقدامة بن جعفر جزءا منه، وإذا عدنا إلى الكتاب نجده هو الآخر يعتمد على التّقسيمات والتّفريعات، فيقسم الكتاب أربعة أجزاء، كلّ جزء خاص بنوع من البيان، وهم: الاعتبار، الاعتقاد، العبارة، الكتاب، وكلّ بيان يتفرع إلى عدّة مباحث، ضمن هذه المباحث تسكن البلاغة العربيّة، وبالأخص في الباب الثّالث، بل في هذا الباب يبلغ جهد **ابن وهب الكاتب** في البحث دون غير من الأبواب الأخرى، فتحدث عن الخبر (ابن وهب، 1967، ص114)، والإنشاء (ابن وهب، 1967، ص113)، التّشبيه (ابن وهب، 1967، ص130)، الاستعارة (ابن وهب، 1967، ص142)، صحة المقابلة (ابن وهب، 1967، ص175)، المطابقة والمشاكلة (ابن وهب، 1967، ص181)، السّجع (ابن وهب، 1967، ص208).

إذا كانت الكتب السّابقة تدرس البلاغة في إطار النّقد، فإنّ **الرّازي والسّكاكي** يدرسان البلاغة منها وإليها، ففي القرن السّادس والسّابع عرفت البلاغة اتجاها آخر مع هؤلاء، وكانت البداية مع **فخر الدّين الرّازي** صاحب كتاب "الإيجاز في دراية الإعجاز"، وهو حسبه تلخيص لكتابي **عبد القاهر الجرجاني**، وأقرّ ذلك في فاتحة كتابه (الرّازي، 2004، ص23)، وعمل **الرّازي** على تنظيم كتابي **عبد القاهر الجرجاني** وتبويبهما، وهنا نجده يعتمد على المنطق، وبما أنّ كتابه موجها بالأساس للعناية بكتب الجرجاني فهي لا تخرج عن البلاغة وإعجاز القرآن، لكن ما يهمنا طريقته في البحث البلاغي أنّها طريقة تعتمد على المنطق وتركز على الحدود والتّقسيمات.

أمّا **السّكاكي** جهده في البحث البلاغي يكون في القسم الثّالث من كتابه "مفتاح العلوم"، وإنْ كنا لا ننفي علاقة الأقسام الأولى بالبلاغة في نظره، فهو الآخر جعل البلاغة قسمين أو علمين: علم خاص بالمعاني وعلم خاص بالبيان، وألحق البديع بهما، وطريقته هو الآخر تعتمد على المنطق والاستدلال، وعلى هذا التّقسيم استقرت البلاغة العربيّة، ولا زالت تدرس في مدارسنا إلى يومنا هذا، وكتبت حولها عدّة كتب منها من يتهم **السّكاكي** أنّه قعد البلاغة وتسبب في تخلفها وانحطاطها، **كشوقي ضيف وعبد العزيز عتيق وأحمد جمال العمري وأحمد مطلوب** وغيرهم، ومنها من يعدّها آخر سبيل لأي علم وأنّها شكلت تحوّلا من صيغة إلى صيغة أخرى كما ذكر **محمد عبد المطلب**.

حديثنا عن بيئة الفلاسفة والمناطقة لم تكن نسبة للكتاب الّذين جردوا قلمهم لدراسة الشّعر والنّثر، بل حتّى الإعجاز القرآني، وإنّما حديثنا كان متجها صوب طريقتهم في البحث الّتي اعتمدت المنطق والحدود والتّفريعات والتّقسيمات الجامدة والجافة، والّتي تجعل البحث إلى قواعد ثابتة لا تتغير حسبهم، وهذا ما نجده عند **السّكاكي** من خلال القواعد الّتي أرساها لكلّ علم.

خاتمة:

إنّ البحث البلاغي بحث متواصل ومشترك، عرفه النّاقد والنّحوي واللّغوي والمتكلم والأديب والباحث وعالم القرآن، إذْ لا يمكننا فصله عن هذه الفئات، فهو منبع لها وهي غطاء له، فالنّاقد يجعل من البلاغة مقياسا يقيس به الشّعر أو النّثر، في حين تذهب اللّغة إلى اعتماد عناصر تعدّ صلب البلاغة وأساسها يضبط بها الكلام على مستوى الجملة أو المفردة، أمّا المتكلم فالبلاغة حجة يستميل إليها للدّفاع عن آرائه ويرتكز عليها في خطبه، وبها يحقّق مطابقة

الكلام لمقتضى الحال، ويحسن إيجاز العبارة، أمّا الأديب فالبلاغة وسيلة له لتحقيق مراده، بتخير ألفاظه وتحقيق مقاصده الّتي لا تكون إلّا باختيار الأسلوب المناسب واللّفظ المناسب في المكان المناسب، أمّا الباحث في علوم القرآن فالبلاغة تشكل وجه من وجوه إعجازه، بل هناك من جعل معرفة إعجاز القرآن مرتبط بمعرفة علم البيان وعلم المعاني، فهما آليات الإعجاز.

نفهم من هذا الكلام أنّ البلاغة العربيّة لم تعرف الاستقرار وظلت مبعثرة بين الكتب إلى أنْ جاء عهد **ابن المعتز** في القرن الثّالث واستقلت معه، إلّا أنّها ظلت منتشرة في المجالات الأخرى بعده، ودليل ذلك أنّنا وجدنا البلاغة في كتب الأدب والمتكلمين والإعجاز والفلاسفة بعد **ابن المعتز.**

قائمة المراجع:

الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر. (دت). الموازنة بين أبي تمام والبحتري. تح: أحمد صقر. ط4. القاهرة: دار المعارف.

بهاء الّدين السّبكي. (2003). عروس الأفراح في تلخيص المفتاح. تح: عبد الحميد هنداوي. ط1. بيروت: المكتبة العصرية.

الجاحظ أبو عثمان:

•(1998). البيان والتّبيين. تح: عبد السّلام محمد هارون. ط7. القاهرة: مكتبة الخانجي.

• (1965). الحيوان. تح: عبد السّلام محمد هارون، ط2. مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

الجمحي ابن سلام. (دت). طبقات فحول الشّعراء. تح: محمود محمد شاكر. دط. جدة: دار المدني.

الجرجاني عبد القاهر. (1992). دلائل الإعجاز. تح: أبو فهر محمود محمد شاكر. ط3. جدة: دار المدني.

ابن وهب الكاتب. (1967). البرهان في وجوه البيان. تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي. ط1. بغداد: مطبعة العاني.

الزّمخشري أبو القاسم. (1998). الكشاف عن غوامض حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل. تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. ط1. مكتبة الرّياض: العبيكان.

الحاتمي أبو محمد بن حسن الكاتب. (1965). الرّسالة الموضحة. تح: محمد يوسف نجم. دط. بيروت: دار صادر.

حسين عبد القادر. (1998). أثر النّحاة في البحث البلاغي. دط. القاهرة: دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

المبرد محمد بن يزيد:

• (1985). البلاغة. تح: رمضان عبد التّواب. ط2. القاهرة: مكتبة الثّقافة الرّيفية.

• (دت). الكامل في اللّغة. تح: عبد الحميد هنداوي. دط. السّعودية: وزارة الشّؤون الإسلامية والأوقاف والدّعوة والإرشاد.

ابن المدبر. (2002). الرّسالة العذراء. ط2. دمشق: دار سعد الدّين للطّباعة والنّشر.

المتنبي. (1983). الدّيوان. دط. بيروت: دار بيروت للطّباعة والنّشر.

سيبويه. (1982). الكتاب. تح: عبد السّلام محمد هارون. ط2. القاهرة: مكتبة الخانجي.

سلام محمد زغلول. (دت). تاريخ النّقد الأدبي والبلاغة حتّى القرن الرّابع الهجري. دط. مصر: منشأة معارف الإسكندرية.

العلوي ابن طباطبا. (2005). عيار الشّعر. تح: عباس عبد السّتار. ط2. لبنان: دار الكتب العلمية.

عصفور جابر. (1992). الصّورة الفنية في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب. ط3. بيروت: المركز الثّقافي العربي.

القاضي أبي الحسن عبد الجبار:

• (دت). المغني. تح: أمين خولي، دط. دب: دد.

• (2006). تنزيه القرآن عن المطاعن. تح: أحمد عبد الرّحيم سايح وتوفيق علي وهبة. ط1. القاهرة: مكتبة النّافذة.

(دت). متشابه القرآن، تح: عدنان محمد زرزور. دط. القاهرة: دار التّراث.

القاضي الجرجاني عبد العزيز. (1966).الوساطة بين المتنبي وخصومه. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دط. دب: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

قدامة بن جعفر أبو الفرج. (دت). نقد الشّعر. تح: محمد عبد المنعم خفاجي. دط. لبنان: دار الكتب العلميّة.

القيرواني ابن رشيق. (1981).العمدة في محاسن الشّعر. وآدابه. ونقده، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد. ط5. بيروت: دار الجيل.

ابن قتيبة أبو مسلم . (1988). أدب الكاتب. شر: علي فاعور. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الرّازي فخر الدّين. (2004). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. تح: نصر الله حاجي. ط1. بيروت: دار صادر.

أبو تمام. (دت). الدّيوان. تح: محمد عبده عزام، ط4. القاهرة: دار المعارف.

ضيف شوقي. (1983). البلاغة تطوّر وتاريخ. ط6. القاهرة: دار المعارف.